

حارس المصابيح

حمادة حامد محمود نور الدين

لم يكن في القاهرة كلّها رجلٌ يعرف أعمدة الإنارة كما يعرفها العمّ حسني. كان يسير كلّ مساء بسلّمه الخشبي القصير على كتفه، يتنقّل بين شوارع الحيّ القديم، فيتوقف عند عمودٍ ما، ويصعد درجتين، ويربّت على الزجاج برفق، ثم يهبط مبتسماً ويتابع طريقه. لم يكن موظفاً في الحيّ، ولا أحد يدفع له أجراً. ومع ذلك كان الناس إذا رأوه ظنّوا أنّ الليل قد جاء فعلاً، لأنّ الليل في ذلك الحيّ لم يكن يبدأ مع الغروب، بل مع مرور حسني.

سأله شابٌّ ذات مساء، وقد وقف يدخّن عند ناصية سوق الخضار: «يا عمّ، ماذا تفعل بهذه المصابيح؟ هي تعمل بالكهرباء، ولا تحتاج إلى أحد.»

نظر إليه العجوز بعينين صافيتين كالماء وقال: «الكهرباء تضيء الشارع يا ولدي. أما أنا فأضيء ما في المصباح.»

لم يفهم الشاب، وضحك، ومضى. لكنّ الأمر ظلّ يشغله، فقرّر في الليلة التالية أن يتبع الرجل من بعيد.

مشى العمّ حسني في الأزقّة الضيقة حتى وصل إلى ميدانٍ صغير تتوسطه نخلةٌ وحيدة. هناك وقف عند عمودٍ عتيق من الحديد المزخرف، مطليٍّ بلونٍ أخضر داكن. وضع سلّمه، وصعد، وأخرج من جيبه خرقةً صفراء، ومسح الزجاج مسحاً بطيئاً كمن يمسح وجه طفلٍ نائم. ثم همس، وكان الشاب قريباً بما يكفي ليسمع: «صباح الخير يا صغيرتي. هل نمتِ جيداً؟»

وفي الزجاج، ارتجف الضوء كأنّه يجيب، وخرجت منه ذبذبةٌ ذهبية، ارتفعت كطائرٍ صغير ثم هبطت على كتف العجوز. هنا فقط فهم الشاب أنّه يشهد شيئاً لا يشهده كلّ الناس: كانت المصابيح كائناتٍ حيّة، تنام نهاراً وتستيقظ ليلاً، وعمّ حسني هو الوحيد الذي يعرف كيف يوقظها بلطف.

اقترب الشاب أخيراً وقال: «أنا آسف. تبعتك.»

قال العجوز دون أن يلتفت: «أعرف. أنت الثالث هذا العام. الناس يتبعونني كلّما شعروا بالوحدة. اصعد، إن شئت، وانظر.»

صعد الشاب، واسمه نادر، درجتين على السلّم، ونظر في الزجاج. فرأى في ضوء المصباح ما رآه المصباح نفسه في ستين عاماً: عشّاقاً يتواعدون تحته ويتشاجرون ويتصالحون، وسكارى يتحدثون إلى الأرض، وأمّاً تحمل رضيعها وتغنّي له بصوتٍ مبحوح لأنّه لا ينام، ولصّاً صغيراً يتردّد ثم يعيد المحفظة، وعجوزاً يمشي وحيداً كلّ ليلةٍ في الموعد نفسه. كلّ ما يمرّ تحت الضوء يبقى فيه.

«هذه ذاكرة الشارع،» قال العمّ حسني. «الناس ينسون، أما المصابيح فلا. وكلّ ما ينساه الناس في هذه المدينة يسكن عمودًا ما. وأنا أمرّ عليها كلّ مساءٍ كي لا تثقل. فإن امتلأ المصباح وانفجر، سقطت ذكريات الحيّ كلّها دفعةً واحدة، وصار الناس بلا أمس.»

سأله نادر: «ومن علّمك؟»

«رجلٌ كان يسير قبلي بهذا السلّم نفسه. لم أعرف اسمه. وفي يومٍ ما سأترك السلّم لأحدٍ آخر.»

مرّت أسابيع، وصار نادر يرافق العجوز. تعلّم كيف يلمس الزجاج دون أن يؤذي الضوء، وكيف يستمع لنبضه، وكيف يعرف أنّ

المصباح على وشك أن يمتلئ: حين يصبح لونه أصفر أكثر من اللازم، ويبدأ بالطنين الخفيض. وكان في كلّ ليلة يجد في الأضواء حكاياتٍ جديدة، فيحفظها، ويحملها في رأسه كما يحمل البحّار أسماء النجوم.

في ليلةٍ من تلك الليالي أراه العجوز عموداً صغيراً قرب المدرسة الابتدائية، ضوءه أبيض مرحٌ يتراقص. قال: «هذا مصباح الأطفال. كلّ ما فيه ضحكاتٌ وأسرارٌ وركضٌ في ساعة الانصراف. لا أحتاج إلى مسحه. يكفي أن أقف تحته دقيقة، فيخفّ ما في صدري.» وصعدا إلى مصباحٍ آخر عند محطة الحافلات، رأيا فيه ألف وداعٍ وألف لقاء، وكان زجاجه مبلّلاً دائماً، كأنّ الدموع تتبخّر منه كلّ ليلة.

قال نادر وهو ينزل: «هل تعبت من حمل كلّ هذا؟» فهزّ العجوز رأسه وقال: «لا أحمله أنا، بل يحمله الضوء. أنا فقط أذكّره بأنّه ليس وحده.»

وفي ليلةٍ شتائية باردة، بعد أن أنهيا جولتهما، جلس العمّ حسني على عتبة سلّم المسجد وقال: «لقد تعبتُ يا نادر. لكنّ هناك مصباحاً

واحداً لم أستطع أن ألمسه منذ عشر سنين. هو المصباح الذي عند بيتي القديم. ذاكرته ثقيلة، وأخشى أن أراها.»

«ما فيه؟» سأل نادر.

«زوجتي. كانت تقف تحته كلّ مساء تنتظر عودتي من العمل. ماتت وأنا بعيد، في سفرٍ لا يلزم، وعدتُ ولم أجدها. ومنذ ذلك اليوم أمرّ بالمصباح ولا أنظر إليه.»

ذهبا معاً في الفجر. كان المصباح قد صار أصفر داكناً، يطنّ بصوتٍ عالٍ كأنه يبكي. صعد العمّ حسني السلّم بيدين ترتجفان، ثم توقف. قال لنادر: «اصعد أنت. سأنتظر هنا.»

صعد نادر، ومسح الزجاج، فرأى امرأةً في الخمسين، بيدها شالٌ أزرق، تقف تحت الضوء وتنظر إلى آخر الشارع. كانت تنتظر بصبرٍ لا ينتهي. وكلّ ليلةٍ كانت تهمس لنفسها: «سيأتي. تأخر قليلاً.» وفي الليلة الأخيرة قبل مرضها، التفتت إلى المصباح نفسه وقالت: «إذا جاء وأنا لست هنا، قل له إنّي لم أغضب.»

نزل نادر وقال ذلك للعجوز بصوتٍ خافت. جلس العمّ حسني على الرصيف وغطّى وجهه، وبكى بكاءً طويلاً لا صوت له. وحين رفع رأسه كان المصباح قد انطفأ تماماً، ثم عاد يضيء، بلون الفجر، أبيض نظيفاً كأنه وُلد للتوّ. وسمعا طنيناً خفيفاً يشبه تنهيدة ارتياح.

لم يعد العمّ حسني يسير بالسلّم بعد تلك الليلة. وضعه عند باب بيته، وقال لنادر: «هذا لك.» وجلس تحت المصباح القديم كلّ مساء بعدها، يشرب الشاي ويحدّث الضوء كما يحدّث صديقاً قديماً. وكان الناس يمرّون ويرونه، ولا يعرفون لماذا يشعرون عند مرورهم بدفءٍ في صدورهم.

أما نادر فصار هو حارس المصابيح. وإذا سألك أحدٌ في هذا الحيّ اليوم عن الرجل الذي يصعد السلّم كلّ ليلة، فقل له: إنّه لا يصلح المصابيح، بل يصغي إليها. وتذكّر حين تمرّ بعمودٍ منيرٍ في مدينتك أن ما يضيئه قد يكون أكثر من الكهرباء.

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app